الإفاقات

-١-

(أ)

أطياف ناس ووجوه، وحركة دائبة في بهو مكان ما، لكأنه فندق في مدينة لا أعرف، نهاية مهرجان أو مؤتمر، ربما استعدادات للسفر وتوزّع عن المكان، وجه صاد وعيناها أمامي، أحدّق فيهما، ونتحرك بلا كلام، وثمّة اتفاق صامت بيننا، فنحن ذاهبان معاً في غفلة من الآخرين أو دراية، نمثل أمامهم واقعاً خرجنا عليه.

(فاصل نوم)

أخرج أنا وصاد الى مكان ما، مختلف عن سابقه، كان عليّ أن أسبقها في الطريق، وتكون هي ورائي. غادرنا، ووجدتني أمشي في شارع أشبه بشارع أعرفه في هذا الجزء القديم من المدينة، كانت عمّان، وكان خلق كثير على جانبي الشارع، وفي السّاحات القريبة، ومداخل الأزقة، خلق يعبر في خطى موحّدة، أقرب الى لون الغبار الأرضيّ، لكأنّه غلالة لونية تغطي كل شيء، الوجوه، القامات والأماكن حتى نهايات الأفق.

انتبهت إلى أني أمشي عارياً تماماً، ورأيت إلى شكلي، كان جسدي متناسقاً، وجميلاً كجسد رياضيّ، وكنت أحدس أن صاد ورائي، وأنها ليست على مبعدة بعيدة، كان الأمر طبيعياً، أعني أن أكون عارياً، وأمشي. ما من دهشة أو استنكار في نظرات المارّة من حولي.

ورحت أمشي مفكّراً في هذا العري، وانتبهت من جديد الى جسدي، وقرّرت أن أشتري دشداشة حين أصل الى دكان الملابس القريب من حيث كنت أمشي. توقّفت ونظرتُ ورائي لأرى صاد. كانت هناك امرأة بسروال طويل، تبدو من خلف مجموعة من المشاة، اتضح لي انها ليست صاد، ووقفتُ على قارعة الرصيف أنتظر حتى تلوح، كنت وحدي وحيداً، ولم يكن هناك أثر لها.

(فاصل نوم)

في نقطة على الطريق المؤدية إلى مطار عمان، أوقفتُ عربة « وانيت » بيضاء، لتقلّني الى مطار الملكة

ورأيت العتمة المحيطة، كانت السيّارتان غير مضاءتين في الطريق العريض الى المطار، كما انتبهت إلى أن عربتنا هي الأخرى غير مضاءة، لفتتْ نظر السائق الى ذلك، قال لي: لا، كل العربات مضاءة حتى عربتنا. ماذا يقول هذا الرجل، وأنا أرى كل شيء، حتى العتمة! ولم أرغب الدخول في نقاش، فالعتمة تحيط بنا، كما تحيط بالعربات. وأطبق صمت خائف على وجهي. بعد قليل وقت، أضاءت العربتان الأنوار، كذلك عربتنا، وحبستُ ملاحظتي للسائق الذي أجاوره في المقعد. فجأة، انحرفت العربة الى أقصى اليمين في محاولة لتغيير الاتجاه، قصد السرعة، التي تلبّستْ آلات الطريق كلها، وفي لمح خاطف ومفاجئ صرنا في أقصى اليمين، وفي مواجهة عربتين متوقفتين، واحدة منهما خاصة بالشرطة، وساطعة الأنوار، وكان رجال يقفون في عرض الأسفلت، وتفاداهم السائق بالإنحراف أكثر نحو اليمين الذي يفضي الى مقطع صخريّ، وجدران عالية، وانتظرت الواقعة، وصدمة الموت، فقد فلتتْ من يد السائق القدرةُ على التحكّم بمقود العربة، وبالعربة نفسها. أغمضت عينيَّ، وانشدّتْ أصابع يديّ في قبضتين متوتّرتين على صدري، إلى أن حصل الارتطام، لا أعرف كيف تمّ، كنت مغمض العينين، وأتكهَّن مرتجفاً بشكل موتي القادم والهيئة التي سأكون عليها بعد أن يتمَّ كل شيء. ساد سكون ما، وتنقست الصعداء، لكني لم أعرف إذا كنت مت أو ما زلتُ حيّاً، فخفتُ من جديد، وتساءلت في داخلي، كيف لي أن أعرف مصيري الآن، هل سأكون قادراً على الحركة، والنزول من العربة سليماً مثلاً، أم عليّ أن أنتظر يدين تقولان لي إني حيّ! وخفت من أن أكون ميتاً، وانتبهت إلى أني أفكر في كل ذلك، وطمأنت نفسي إلى أني ما دمت أفكر هكذا، فيعني أني لست ميتاً، ثم أخذت في تحريك أصابع يديّ، وشيئاً فشيئاً انفكّتْ قبضتاي المشدودتان، وأخذتْ أصابعي وضعها المعتاد. إذ ذاك فقط أيقنت أني لم أمت، ولا أعرف ما إذا كانت صرختي هلعاً من الحياة، أم فرحاً بها.

كنت في فلك من الفراغ أدور، وصلت الى صاد بعد مهاتفتها في الفندق، أمّا أي فندق، فلا أعرف، وذلك يعني، أني سأبيت الليلة جوارها. لم أجرِ المكالمة، عرفت ذلك بعد أن رأيتها.. أخذنا نتمشّى في أفياء حديقة نعرفها معاً، هي HOLAND PARK في لندن، كنا في ذلك الجزء من الحديقة المفعم بمربعات ومثلثات ومستطيلات حوضية لأشكال شتى من الأزهار والورود، كنّا كمن يشقُّ كرنفالاً حاشداً من الألوان، ونتحدّث صمتاً وإشارات في مهرجان الطبيعة الصاخب، وصلنا الى ما اعتبر مكاناً لنومنا، هو مساحة من الخضرة تحت العراء الكامل، ثمة فراش ممدّد على الأرض، معدّ لنوم اثنين، فرشتان مفرودتان، ومغطّاتان بحرامين من الصوف، تفصل بينهما مسافة ما قليلة، لاحظت أن هناك من ينام في إحدى الفرشتين، ولا يبين منه شيء واضح، فمن يكون؟ كما تبيّن لي مكان نومي، وهو على مبعدة ما من الفرشتين، خلف ستار نباتيّ كثيف، ولم يلفتني غياب الفندق، كان الأمر طبيعياً، أن ننام في هذا العراء الكامل، لكن من يكون هذا النائم المجاور لمكان نوم صاد، كيف يتمّ ذلك، وأي معنى يأخذه شكل حضوري هنا، أوضحتْ لي، دون ذكر اسمه: إنه مريض في الساق، أما من أين جاء وكيف، فلم يكن هذا مثار اهتمام لديّ، ولم أعرف لماذا كان لا بدّ له من أن ينام الليلة هنا. وبينما أنا في ارتباكي وفي شيء من غضب حزين، تململ الجسم المغطّى، ثم ظهر وجهه وأزاح عنه الغطاء، وظلّ لوهلة وجيزة ممدداً. كانت سيقانه عارية، ويرتدي فنيلا بيضاء طويلة، راح يزيحها إلى الأعلى قبل أن ينهض، ليظهر شيئاً فشيئاً، سرواله اللاصق بالجسم الأشبه بلباس لاعبي كرة القدم الذي يرتدونه تحت سراويلهم القصيرة. كان يبدو متجهاً الى بيت الراحة الوهمي، حيث لا غرف أو جدران للمكان الذي يجمعنا أو سقف. لم أعلّق، وكان صمت.

ثم إني استيقظت كاملاً، كانت السابعة والنصف، واحترت ما أفعل بالوقت، كان لي يوم مشحون بالغبار وحالك في

ظهر وجهه وأزاح عنه الغطاء، وظلّ لوهلة وجيزة ممدداً. كانت سيقانه عارية، ويرتدي فنيلا بيضاء طويلة، راح يزيحها إلى الأعلى قبل أن ينهض، ليظهر شيئاً فشيئاً، سرواله اللاصق بالجسم الأشبه بلباس لاعبي كرة القدم الذي يرتدونه تحت سراويلهم القصيرة. كان يبدو متجهاً الى بيت الراحة الوهمي، حيث لا غرف أو جدران للمكان الذي يجمعنا أو سقف. لم أعلّق، وكان صمت.

ثم إني استيقظت كاملاً، كانت السابعة والنصف، واحترت ما أفعل بالوقت، كان لي يوم مشحون بالغبار وحالك في الغياب الذي يشملنا. مساء هاتفتني من مكانها البعيد، وقالت لن تطيل الحديث، فهي تتكلّم من بيت غير بيتها، سألت: بيت من؟ وباختصار جمّ قالت: أنت لا تعرفهم. ولم أحاول ثانية، لم يكن في الحديث ما يشير إلى لهفة ما، أو شوق، كأن لا فراق، أو مكابدة. كان في الأسلاك ضجيج موسيقى، وأغلقنا الخط بالبرود ذاته، والصمت ذاته، على أن تعود وتهتف لي غداً في نفس التوقيت، وتساءلت وأنا ابتعد عن الهاتف إلى طاولتي في الفينيق: لماذا أتعذّب في كلام اللاكلام!

هذا الصباح بالغ الوحشة، خرجت أسأل عنها، وجدت في صندوق بريدي مغلّفاً أبيض، وعرفتها في الخط، وفي الختم الذي يقول على ظهر المغلّف:

A card makes every one·s Christmas

فضضته على عجل لأقرأ:

« ... توقفت توّاً عن قراءة رسالتكَ الثانية، تجرحني بحرقتها وبلاغتها الحزينة ... من أين تأتي بكل تلك العذوبة، أما الأسى فأنا أعرف مصدره، فهو لا يفارقنا قط حتى في أسعد لحظاتنا.

الأيام ثقيلة على نفسي، وتزداد ثقلاً في موسم أعيادهم الوحيدة، ومناسبات افتعال الفرح.. أواه، لا أدري كيف سأحتمل هذا الموسم الكئيب من دونك.. ما أحسن ما وصفتَ المدن التي عبرنا في رحلتنا الأخيرة... لا أكاد أصدّق أن ذلك قد حدث، بل وأنه قد انقضى، تحضرني فاصلة من أغنية لا أعرف مغنّيتها، تقول فيها:

(خايفة نبقى ذكريات أول صورة في ألبوم...)

وكل الصور معك، وأيضاً سجلّ الذكريات».

هكذا اختلط الحزن والفرح، في نسيج غريب، وظلّلت الصدر غيمةٌ بيضاءٌ، بينا كنت أشتبك بالطرقات، وبين يديّ بطاقتها.. أقرأ ولا أقرأ، مكتفياً بالتحديق في الكلمات المغطّاة بوجهها تماماً وعينيها وهما تترقرقان متغلغلتين فيَّ إلى أبدي السحيق.

وواصلت نهاري محفوفاً بالسطور القليلة وأسى البعد.

(ب)

لا يعوزني في الأرض شيء، ولا أفكر بمدار آخر، ما دامتْ معي وأمامي، لا يشغلني غير هذا الحضور، حضورها، الذي يكمل الحياة، ويجعلها أبهى، إنها تصعد ببطء، تصعد أمامي، بالبطء الذي تحدّث عنه ميلان كونديرا، البطء اللذيذ، بطء الإيقاع الذي يجعلها تترجرج على الأدراج، فيشيع فيّ ونحن نصعد أجواء مشحونة بالنشوة، تمتدّ أصابعي إلى خاصرتها، حاضناً بعينيّ هذا المدى الجسديّ المتحرك أمامي،

مأسور في اللحظة الراهنة، كما صاحب الدراجة، المقطوع الصلة بالماضي والمستقبل، المقتلع من تواصل الزمن، خارج الزمن، تماماً مثلما قال كونديرا. حالة من الانخطاف، حتى أصل الباب، وندخل، فكيف يظل صدري صامتاً يا الله، دون أن تدوي فيّ أجراس العناق، لتغيب الحمامة بين يديّ، وتأكلني النّار!

ـ ما اسم هذه السمكة يا حبيبتي، ما اسم هذه الجمال المضيء، كأنها تبكي، كأنها تبسم بين أيدينا، لا بدّ وأن يكون اسمها: سمكة الحب، إنها تبتسم حزينة.

لم أقل ذلك، لكني سألت مبهوراً، بامتدادها الفضّي، والدائريّ، كأنها قمر بضوء رماديّ، قمرٌ خذله الرعاة، رعاة الشمس، فوصل إلينا، بكل هذا الجمال الحزين، ليكون طعاماً لنا!

هي الكروم، ذات الكروم التي أعرفها، كروم الطفولة والصبا، والمرور الصباحيّ والمسائيّ عنها وعبرها، خلال سنوات دراستي القصيرة في بئر زيت. كروم العنب والتين والمشمش واللوز الكريم، ما تني تحضر لي في أحلامي، وأنا في حالات وأعمار مختلفة. وأمس فقط، أمس رأيتني فيها، ولا أدرك لذلك سبباً، كنتُ غيري الآن، أفيض بدم الشباب، كانَ عليّ أن أنام في ذلك الخلاء ولا أرى بشراً، لقد حدّد مجهولون لي مكان نومي، ولم أرَ وجههم، رأيت المكان، مكان نومي، كان الفراش قد أُعدّ أرضياً، وصرت وحدي، وكنت أصلاً وحدي أتنقل في مشهد الأخضر، ورغبت أن أتفقد المكان المحيط بنومي، مشيت خطوات، ورأيت حديقة مسوّرة بأعواد القصب، وفروع الأشجار، حديقة مربعة مفروشة تماماً ببساط العشب الأخضر الكثيف، وحذاء السور، قريباً من مكان وقوفي، رأيت حماراً وحشياً مخطّطاً، ممدداً بقوائمه الأربع، تأمّلته، وكان ميتاً. أدهشني ذلك، ونقلت بصري إلى الزوايا الأخرى، لأرى أكثر من حمار وحشيّ ميّت، جثثاً موزّعة على زوايا الحديقة الخضراء، لم تكن هناك روائح صادرة من الجثث، أحسست بحيرة مشوبة بالخيبة، من الناس والمكان، اذ كيف يرمون هنا الحمير الميتة، ويجعلون من هذا الجمال مزبلة، فكّرت أن أذهب، وأُعلم المنظّمين لوجودي هنا، بما رأيت، لكني رحت أنظر الى الحمار الوحشي الميت، كانت خطوطه بالغة الدقة والجمال، ومن بعيد يبدو مثل لوحة تشكيلية، بخطوط بيضاء وسوداء على قماش أخضر، ثم أقنعت نفسي أن المسافة بعيدة، بين مكان نومي، ومكان الحمر الوحشية الميتة، ولم أدر ماذا أفعل، إذ لا رغبة عندي في النوم، أخذت أجول المكان بعينيّ حتى نهايات الأفق الذي أخذ يدخل في العتمة.

رأيتني من جديد، أمشي في طريق غير بعيد عن مكان نومي والحديقة ذات الحمر الوحشية الميتة، طريق يتاخم الأفق والمخيم، أعني مخيم الجلزون، ورأيت رجلاً أبيض الوجه، لا أعرفه، كان يصحب كلبين، رمى شيئاً أشبه بكيس ورقي قريباً مني، وفجأة إذا بأحد الكلبين يهاجمني قافزاً على كتفيّ من الخلف. باغتني ذلك، بحيث لم أبادر الى أية مقاومة، فما كان يمكنني أن أفعل شيئاً، بعد أن استقرَّ الكلب على كتفيّ، أدهشني أن الرجل راح يتكلم مع كلبه، والكلب يردّ على صاحبه باللغة العربية، وكأني عرفت من كلامهما أن اسم الرجل جابر أو جبران، فرحت أخاطب الرجل باسمه موهماً أني أعرفه، وكأني لم أسمع اسمه من كلبه، قصد أن يستدعي كلبه، ويحرّر كتفيّ. لم يعضّني الكلب، أو يؤذني بشيء، كما لم أصبْ برعب المفاجأة، ثم أن الرجل، أخذ يعتذر لي عن مداعبة كلبه، وأني ما كنت المقصود، لكن الكيس الورقيّ، ومع ذلك لم يحرّر الكلب كتفيّ، ولم أعرف كيف انتهى الأمر، فقد صحوتُ.

كنت أجلس قريباً من حافّة شبّاك في بيت، يُفترض أنه بيتي، كنت وحدي، لكني أحس بوجود أمي في

مكان ما من البيت، وإن كنت لم أرها منذ زمن بعيد، كان البيت شقة، في بناية شاهقة الارتفاع، مكوّنة من عشرات الطوابق، وانتبهتْ إلى أن الشباك بلا حماية حديدية، كما لاحظت عموداً حجرياً ناتئاً، ينبثق من الحائط الخارجيّ بلا سبب معقول أو ضرورة قريباً من الشباك الذي أجلس على حافته، ويمتدّ في الفراغ. نظرت من الشباك، ورأيت مدى عمق الهاوية، فيما لو وجدت نفسي أجلس فوق هذا العمود الحجري الناتئ، ورأيت صعوبة النجاة فيما لو اختلّ جسدي. وتدلّيت مُمسكاً بالعمود، بينما جسمي كلّه في الفراغ يتدلّى، كيف لي أن أمدّ يدي وأمسك بالنافذة، وارتعشت كما لو أن الأمر كان حقيقة، ثم أني لم أستطع أن انحّي هذا المشهد عن عينيّ، فرأيتني أتأرجح، وأفكّر كيف أنجو قبل السقوط، مدركاً أن لا أحد سيسمع صراخي، أو استغاثاتي. وراح بدني ينمنمني، وعيناي لا تفارقان امتداد العمود في الفراغ، رغبت أن أنادي على أمي، لتصدّ عني هذا الهاجس الذي يلحّ عليّ، ويدعوني لاحتضان الهاوية، ولما كان الصمت كثيفاً، ولا صدى لصوتي، أو إجابة، وجدت نفسي أطوّق العمود الحجريّ بيديّ، وجسدي مدلىّ كلّه في الفراغ، واصلت النداء على أمي، بلهفة أعمق، ثم ارتخت يداي على العمود، وأخذت أهوي، وكنت وأنا أهوي أنادي على أمي، وكان صوتي مجروحاً، كنت بطيئاً أهوي، مثل ريشة خفيفة، وأنظر الى الشبابيك التي أمرّ عنها في سقوطي، وناسها جالسون، يلهون أو يحكون مع بعضهم البعض، ولم يلتفت أحد اليّ ولا أثار هذا الهبوط الخفيف الهادئ انتباه هؤلاء السكان الصامتين، سكّان الطوابق التي أمرّ عنها هاوياً ببطء، يتيح لي أن أرى، كيف يديرون أحاديثم، في ملالة بيّنة. وعجبت وأنا أهوي، كيف أن هؤلاء جيراني، وكيف جاورتهم كل هذا الزمن! على أني انتبهت إلى أني أكاد لا أعرف أيّاً منهم، ولا يبدو على أحد منهم أنه يعرفني، وأقنعت نفسي، أن هؤلاء ليسوا بالضرورة جيراناً لي، أحسست براحة ما، وأنا أهوي، ولم أصل الأرض بعد.

ينقلب الأحد على السبت، وينقلب عليّ، وما رسمناه من بهاء لساعاته، استحال هباء منثوراً، فقد غابت صاد طيّ العمل المتأخر، وزوّار الصباح الذين أكلوا نصف النّهار، أما النصف الآخر فتلاشى بحثاً عن تواريخ وأوراق في أحشاء الحاسوب، حتى أشرف النهار على العتمة، وحين وصلها صوتي، اعتذرتْ عن موت الأحد، وعن عجزها الراهن أمام ما انكسر. وحين التقينا خطفاً بباب مخزن الأطعمة، اختارت في عجالة ما اختارت، واختارت لي ما يقيتني وحدي بلا مشقّات، وفي الطريق راحت تغيب وحيدة، وإذ كانت تدنو من البيت، كنت أنا أبتعد، لأقيم شعائري الخاصة، الشعائر الأقرب إلى وصفها بالجنائزية.

(جـ)

كنتُ أجلس في غرفة صاد، غرفة الغزالة التي أحب، غرفة واسعة في فندق كبير، لا أعرف في أيّ مدينة أو قطر، أجلس في منتصف كنبة وثيرة، ولا أرى الغزالة، لا أعرف في أيّ مكان هي من الغرفة مختفية. أجلس وحدي، والغرفة عائمة في شبه عتمة شفيفة، وأطلّ بوجهي نحو الباب. كنا نجلس قبل قليل، ولا أعرف ماذا احتسينا. أعرف أني أجلس في شبه عتمة شفيفة، أرقب لحظة يبزغ هلالي، من زاوية ما في الغرفة.

سمعت نقرة خفيفة على الباب، وراح ينفتح ببطء شديد، حدست أنها عاملة الغرف، فسوّيت من

جلستي، كنت في كامل ثيابي، والتفتُّ أن تظهر الغزالة، ولعلّي ناديت عليها، لكنها لم تلحْ لي، ولم تصدر منها حركة ما، وعاد الباب ينطبق من جديد، نهضت عن الكنبة لأرى أين هي، فإذا بي ثملٌ جداً، وترنّحتُ قبل أن أتهاوى بعد خطوتين، إلى جانب كومدينة بنية اللون، أراها للمرة الأولى، حاولت القيام مقاوماً تهالك جسدي، حاولت ثانية وثالثة، مدركاً أن الباب سينشقّ بعد قليل عن عاملة الفندق، وما رغبت أن تراني هكذا. ناديت بلهفة جريحة على من أحب لتسندني وأقوم، لم يسمعني أحد، ولم يشقّ الباب، وغرقت في يأسي.

كانت معي، وكان آخرون معنا، أمام فندق كبير. الى جانب مدخله الرئيسي، يحيط بنا سور حديديّ مشبّك، صرت خارج هذا السور، عبر إحدى فتحاته المربّعة، التي لا تزيد عن مساحة كفّ، كنت أحمل بيدي إناءً زجاجياً محدّباً، قصد رميه على شرفة غرفة في الطابق الثاني، لإيقاظ شخص على ما يبدو، وحين هممت بالرمي، لاحظت شبابيك كثيرة، وخشيت أن يصاب شباك منها، فتحدث فوضى، لا تحمد عقباها. رغبت عن ذلك، وغشتني رهبة ما، ورحت أستعجل البحث عن فتحة في السور الحديديّ، لأنضمَّ إلى صاد وإلى من كانوا معي. ارتعش بدني وأنا أرى إلى يساري دوّاراً اسفلتياً وعربات سوداء، أخذت أسمع صوت محركاتها، لكأنّها تستهدفني، صرختُ على من أحب، لتبحث معي عن فتحة في السور، قبل أن تصلني العربات، ورأيتها تدفع باباً حديدياً عريضاً، وراح ينفتح الباب، وأنا خلفه، مشكّلاً حاجزاً عريضاً ملأ الطريق عليَّ، ولم يبق لي منفذ لأصل الى فتحة الباب الذي شرعته لي، ووجدتني من جديد في وضع أشبه بالقفص، والعربات السوداء، تقبل نحوي. هل صرخت، وذهب من أحب إلى نجدتي، أم تجمّدتُ في اللحظة منتظراً أن يُشقَّ لي فضاء وينشلني من نفق الرهبة؟ لكأنّ المكان اختلف. لمحتها تعبر حاملة ثلاث حقائب صغيرة للملابس، تبدو فارغة، صرختُ عالياً باسمها، فالتفتتْ نحوي، وبدتْ غير راضية عن ندائي الصّريح عليها، واستدارت الى شارع على اليمين، اندفعتُ اليها، وشاهدتها تدخل أحد صناديق الهواتف الحمراء، واصلت اندفاعي، حتى قطعتُ مسافة طويلة، وأدهشني أني ما رأيت أيا من صناديق الهواتف الحمراء، فأين ذهبت؟! مررت بمحل تجاري يجلس فيه شخص يعرفني منذ بلاد الغربة الأولى، ولم أره من زمن بعيد، أشار الى أن أحد جوربيّ قد ابتلّ، وانتبهتُ إلى نفسي، فإذا بي بلا حذائين أمشي، وأرتدي جوارب بيضاء سميكة، وانتبهت إلى المسافة، وغياب صندوق الهاتف الأحمر، الذي دخلتُه، وأصابني هلع ما من ذلك، وفكّرت أني لا بُدّ، تجاوزت الصندوق. قفلتُ راجعاً، وبانَ لي أني في شارع حيّ شعبيّ، مُترب، وكثير الغبار! فأين صارَ ذلك الشارع الذي على جانبيه صناديق الهواتف الحمراء؟ لكأني ضيّعتُ صاد، وضيّعتُ الشارع! ووقفت صافناً في الفراغ.

(د)

وجدتني جالساً على رصيف، خلف مدرسة الهاشميّة الثانوية في مدينة رام الله، قبل احتلالها عام ١٩٦٧. لم يكن رصيفاً لمقهى، رغم أن أمامي طاولة، وأشيائي المعتادة مفرودة عليها، تقدّم مني شاب، مربوع القامة، يرتدي بدلة رمادية، دون ربطة عنق، وتدخّل في صمتي، إذ راح يخبرني أن هناك مطعماً جيّداً، يقدّم مشويّات طازجة، قريباً من مكان جلوسي، تذكّرتُ أن هذا الشاب، سبق أن حدّثني عن هذا

المطعم، رغبتُ أن أداريه، لأبحث عن منفذ، لأبتعد عنه، فأخذت أجمع أشيائي عن الطاولة، وأنا أوهمه باستجابتي، فمشى أمامي في جهة المطعم، حيث أشار، وقبل أن ينعطف الى زقاق آخر حسب وصفه، توقّف ونظر نحوي صامتاً، كنت أتهيّأ للهرب في الاتجاه المعاكس، لأنّ خوفاً ما راحَ يعتريني. إذ ذاك وجدتني أندفع نحوه بشكل هذياني، كأني أقاوم هذا الخوف الذي يدبُّ في أعصابي. ثم أني توقفت فجأة، وكان هو قد أدار ظهره، هامّاً بمواصلة سيره، فقفلت في خفّة طيرانية في الإتجاه المعاكس، وصرت على طرف الشارع البعيد، التفتُّ اليه، رأيته واقفاً، وهو يحدّق في وجهي، كأنّ المسافة التي صارت بيننا قد امَّحتْ، وكان قد استلّ من جيب جاكيته الداخلي سكيناً لامعاً، راح يلوّح بها أمامه في الفراغ، ويقوم بحركات بهلوانية، كأنّما يتهيّأ لطعني، رغم أنه لم يقترب خطوة واحدة مني، ولا أنا واصلت هربي، فقد كنت أدخل في صرخة مكتومة.

واصلت نومي، وغاب المشهد، لم أعرف كم مرّ من الوقت، قبل أن أرفع رأسي، لأرى صاد نائمة الى جانبي. نظرت إلى وجهها، وأدهشني ما رأيت، فأغلقت عينيَّ مُتمنيّاً أن أكون في حلم، وأن الذي أراه ليس الحقيقة، أفهذا وجهها، وجهها الذي أحضن بين يدي، وأمسحه بالقبلات والصلاة؟ ليس هو هذا، فما الذي حلّ بوجه حبيبي في نومه؟ إني لأراه مليئاً بالتجاعيد، تجاعيد دقيقة، وأخاديد طويلة، ومتقاربة جداً في متوازيات بلا عدد، لا تكاد تشبه أية تجاعيد حقيقية، أو مرسومة على ورق، واصلت تحديقي في وجه حبيبي، وقد غشيتني الحيرة، وبقيت على دهشتي، مشفقاً، وخائفاً عليه، أن يستيقظ ويراني وأنا أراه.

كنت أغادر غرفتي اللندنية الكائنة في الطابق الرابع، وكانت صاد قد سبقتني في الخروج، ووقفت على أوّل السلّم الموصل الى الطوابق السفلية، وقبل أن أغلق الباب، خطت راجعة ودخلتْ، دون إيضاح، لربما نسيتْ شيئاً ما، هكذا ظننتُ، وانتظرتُ مكانها، حين عادت وجدتني أعود فأدخل الغرفة بدوري، دونما سبب واضح، لأشاهد غيمة كثيفة من الدخان، ثابتة في فضاء الغرفة، بموازاة الطاولة التي تتوسّطها، لم ألاحظ انتشار الدخان في الأرجاء، وعجبت لذلك. كانت هناك أشياء على الطاولة قد احترقت، وأشياء لا تزال تحترق. لمحتُ ساعة يدي الوحيدة المتروكة على الطاولة، وقد أتى عليها الحريق، باستثناء الجزء الممتد ما بين الرقمين ٢ و٩ ، أمسكت بالساعة من هذا الجزء، ورفعتها، فإذا كل محتوياتها تتساقط رماداً أسود، وعجبت كيف يستحيل المعدن الى مثل هذا الفتات الرماديّ، فكّرتُ، كيف لم تنتبه صاد، حيث تركتْ عود الثقاب مشتعلاً، هي التي طالما حذّرتني ودعتني الى الإنتباه إلى فرن الغاز والمدفأة الغازية، للتأكد من إغلاق أزرار هذه الأجهزة قبل الخروج من الغرفة، أو النوم! هل أناديها لتشاهد غرابة هذه الغيمة الدخانية الثابتة في فضاء محدّد، بمساحة سطح الطاولة حسب؟ لم أكن غاضباً، أو حزيناً على ساعة يدي التي احترقتْ، واستحالت سكناً، ولا أذكر أني فعلت شيئاً سوى أني رحت أتأمل حريقي!.

– ٢ –

(أ)

أمس حكيت لصاد انطباعي عن «سلالم الشرق»، رواية أمين معلوف الأخيرة، في ترجمتها العربية، الحاشدة بالأخطاء اللغوية، موضّحاً أن الكاتب ذهب أبعد في رؤيته الغربية لشخوصه، وأحداث مؤلّفه

هذا، مما ذهب اليه في روايته الأسبق « سمرقند » فإحدى الشخصيات الأساسية في هذه الرواية « كلارا » التي لم يشرْ المؤلف صراحة الى هويتها، كيهودية، مكتفياً بالإخبار عن مشاركتها في المقاومة السرية أثناء الإحتلال النازي لباريس، من دون أن نعرف عن دورها شيئاً. وماذا كانت فعلت في المقاومة، سوى أنها التقت صدفة في أحد بيوت المقاومة، بالرجل الذي ستتزوج منه لاحقاً، ثم نجدها فجأة في فلسطين بعد انتصار المقاومة الفرنسية، ودحر الاحتلال النازي، كإشارة ذكية، لمواصلة دورها المقاوم «ما دام هناك حقد منذ القدم بين العرب واليهود » كما يقول المؤلف، ثم لتحجزها الحدود، وأشياء تظل غامضة، عن زوجها المقيم في بيروت، بعد الاعلان عن قيام دولة اسرائيل، لتلتقيه بعد ٢٨ عاماً، في مكان موعد حبهما الأول، في ساحة النجمة بباريس.. إن كلارا هذه شخصية ذات تأثير وسحر، إضافة إلى بعدها الإنساني اللافت، الذي برع المؤلف في نحته جيداً، هناك أيضاً شخصية الخال، خال كلارا، الذي يقدمه الكاتب كذات مختلفة لا دور له في هذا الصراع الناشب بين العرب واليهود، قبل وبعد اعلان الدولة العبرية، حيث يعزل نفسه في حيفا ولا يخبرنا عنه، إلا حين يرد حديث كلارا، هذا في الوقت الذي تجيء عليه الشخصيات الأخرى التي تنبني عليها الرواية، عتاةً ولصوصاً وقتلة، أو ممسوسين عقلياً، وهم سلالة حاكم مسلم مخلوع من السلطة.

كنت أتساءل أيجيء كل ذلك صدفة، على أني قلت لصاد إني حفظت سطوراً كثيرة من الرواية، ورحت أقرأ لها غيباً هذا المقطع:

[يمكن أن يظل الحب بكراً، والمشاعر كذلك، شهراً بعد شهر، وسنة بعد أخرى، فالحياة ليست طويلة، كي نضجر منها].

بدت شديدة الإعجاب بهذا المقطع، وضمت يدي بين يديها، ودخلنا في الصمت، كنت أتهيأ لسفر قريب، ويشقني الغياب سلفاً.

|

هذا صباح مختلف، صباح غريب. سبقه ليل أكثر غرابة، ما كان أسهل الليلة الأخيرة في لندن، حيث تعذّر إقلاع الطائرة، فأخذونا إلى فندق قريب، وحين أعلمونا صباحاً باستعداد الطائرة للاقلاع، أحسست برجفة في داخلي، وأيقنت أني في طريق البعاد عنك، فكيف صعدت الى الطائرة، لأصل ليلتي الأولى بعيداً عن لندن، ثم لتنهال الكوابيس، فأستيقظ مرات، وأنا أصرخ رعباً.

رأيتني في يديّ اضمامة من أعواد الورد الجوريّ، المحفوف برؤوس شوكية بارزة، وعليَّ أن أضعها في إناء مرتفع على الشباك. صعدت على كرسيّ صغير، وإذ رحت أمد يدي بالورد اختلَّ توازني، وأخذتُ أميل بجسدي ناحية الشباك، وانتظرت أن أهوي، كانت الرؤوس الشوكية تنغرز في لحمي، وصرخت باسمك: الشوك في يدي، ثم إني أفقتُ.

نهار ممطر، ورياح كثيرة، ورحت أبحث عن إيقاع ما، تنغلق الأشياء أمامي وأبحث عن إلفة في الهواء العاصف، أينك يا أغنيتي، لكم أفتقدك! الأخبار التي تجيء من البلاد جارحة، وما تنقله شاشات التلفاز، يُسمّم الروح أيضاً، لكم أحسّ بالخراب المحيط، لكم أرى عمق هذه الهاوية، وفي غمرة كل ذلك يملؤني حبكِ، وأطلُّ على خيط من الأمل، لا براء لي منه، هو الخيط الباقي، الخيط الحقيقي الى الحياة. لَكم يعمينا

الوقت، وأعصابنا أحياناً، عن رؤية جمال من نحب، لنؤدّي له كاملاً نهارنا، كصلاة دائمة!

|

بلى، اليوم هو الثلاثاء، لم يصل هاتفك، وكان انتظاري طويلاً، غادرت الرابطة لأدخل في صداع غريب، صداع لم أعرف مثله قبل، وما أن وصلت الدار، حتى تهالكت على سرير فراس، بلعتُ حبتيْ اسبرين، وما خفّ صداعي، قام فراس بتعصيب رأسي بمنديل، بعد أن لفّه بقطع من الثلج، وقطع من الخيار، وهويت في النوم، لأستيقظ بعد ساعات مليئاً بالهشاشة والفراغ، لكن الصداع كان خفّ، ثم لأدخل في ردهة التفكير فيك. منذ أمس، رحت أخربش ما يشبه الشعر:

تُوجعُني الأشياءْ
تُوجعُني في بعدك، كم توجعني الأشياءْ
تأخذني الريحُ الى الأمكنة،
أراني بين السابلة غريباً،
لا هذا المقهى مقهايَ،
ولا قدمايَ هنا قدمايَ،
أنا آخرُ طروادِيٍّ عند الأسوارِ أموتُ
وتاجي الإعياءْ
لا أبحث في زاوية، أو عشب، لأقول رجعتُ
فلا بحري هذا البحرُ، ولا ميناَئي هذا الميناءْ
تُوجعني الأشياءْ
وأنا تحت سماء غير سمائك
أين شراعُك، لتكون الزرقةُ والشمسُ
تكونُ لنا موسيقى الخضرةِ والماءْ!
تُوجعني الأشياءْ

(ب)

إنه عيد الأضحى، وأنا في البيت، أكتب وأدخّن، أمامي مدفأة، وانتظرتك حتى حدود الظهيرة، ثم أني ذهبت وفراس الى زيارة قبر حمدة أمي، وأول ما وصلنا، رأيت فراشة، صفراءَ زاهية، تتطاير حول رؤوس الأزهار المزروعة على ظهر القبر المستطيل، فكّرت: الجمال الجريح يحوم على الموت، فكرت في ذلك وأنا أقرأ الفاتحة واقفاً، وجلستُ على حافة قبر مجاور، ورحتُ أقرأ سورة «النور» مصادفة. كنت جدّ حزيناً، لا ظلال لهذا اليوم الهادئ الميّت، فأين أنت؟ ختمت القراءة بالفاتحة، ومسحت بيدي على شاهدة القبر كأني أقول لأمي وداعاً، ومشَينا الى بيت أختي القريب، ما أشدّ وحدة هذا اليوم!. أتقرّب من فراس هرباً مني، أضع يده في يدي، وأطمح أن أجد الكلام. أريد أن يعرف كم أحبّه، وكم أنا وحيد وأحتاجه، وكم هذه الأرض ضيقة على قلبي، لا أريد له أن يراني نافراً. كنا ندخن كرجلين وحيدين، أب وابنه، نعبر المقبرة

ونمشي، كيف أتواصل مع الأشياء والهواء والجبل، كي أتواصل معي، أحسّ أننا أتينا معاً هذا المكان، أنا وأنت، أحسّك الآن، وأنا في مدينة الموتى، أحسّك تهرعين اليّ من البعيد، من رؤوس الأشجار التي تطوّق المقبرة، أحسّكِ تماماً، كما لحظاتنا الأخيرة في لندن، وأنا أغادر حين نسيت جاكيتي الجلدي في الغرفة، وعدت لآخذه، خابرتك بالنسيان، فقلت إنك قادمة، ما كنت قد ابتعدت بعداً كثيراً، وأتيت اليّ، كنت مثل زهرة ترتجف في هبوب ريح، كيف احتضنتك عندها، كيف كان وجهك وعَيناك ونظراتك الإلهية الوالهة، نظرات إله جريح، يرأف بجراح العابد! أحسّك أكثر، وتملأين عليّ البلد!

مكثنا دقائق قليلة في دار أختي، يا له من واجب اجتماعي مقيت!

كان لا بد أن آخذ بعض الكتب من مكتبتي الباقية وحيدة، في الجزء غير المؤجر من بيتي المؤجر في « الرصيفة » التي غادرها أبنائي إلى العاصمة. ودخلنا ولم يكن المستأجرون هناك، يا للبؤس الذي لحق بالشجر الذي زرعت من سنوات بعيدة، فأين الورد والزهر والخضرة؟ الحديقة ميتة، والصفصافة الوحيدة مقطوعة، لأنها اجتاحت كما قيل أسلاك الكهرباء العالية. وأين شجرة الكينا؟ أين شجرة الإجاص والتفاح؟ وأين الياسمينة المعرّشة على البوابة والسور؟ إني لأراها عيداناً يابسة، تتكسّر في الريح. ولماذا توقف نمو شجرة الليمون وكأنها لا ترغب أن تحتل مساحة أكبر من الفضاء؟ يا الله، هنا، مكان هذا الغبار، جلسنا معاً، ذات أيام من إبريل بعيد، في مثل هذا الشهر تماماً، هنا أخذنا الصور، وهنا وقفنا، وشربنا القهوة تحت معرّش هذه الدالية، ورأينا وجه الله معاً، وفرحنا، وهنا، ولدت أحلى الأحاسيس، وأجمل ما وهب الله لقلبين وحيدين، التقيا في العاصمة الأكثر وحدة وكآبة وجمالاً. وهنا كنّا. لا، لا، ليست هذه مكتبتي أو الصالة الطويلة التي أعرف، يا للأطلال!! رغم أن كل شيء مجلل بالقماش، إلا أن الغبار تسلل، وأضفى هذه الهالة من الهجران، ورائحة الغياب الإنسانيّ، والأصابع الحنونة، يا لكتبي الحزينة! ما من كآبة أشد عليّ من ذلك!

« وآأسفاه »، قلت بصوت ممزوع من القلب، وأحسَّ بي فراس وراح يخفّف عليّ بقوله « إنها كما هي ». الأرضية جرداء، اللوحات أو ما تبقى منها على الجدران باقية على الجدران، مهجورة تماماً، كنت أنظر الى المكتبة، أنظر وأتأمّل صامتاً، وبعد وقت، أخذت ما يلزمني، دلفنا الى المخزن المتصل بالصّالة، كانت صور الشعراء والشهداء، في إطاراتها الخشبية مركونة أسفل الحائط، صور: أبو سلمى، إبراهيم طوقان، عبد الرحيم محمود، كمال ناصر، وغسّان كنفاني، ها هم في ذمة العتمة والعزلة والنسيان، صحبة أكوام من المجلات والكتب والأوراق التي لا أعرف تواريخها. كيف أطيل الوقفة إذن، والنظر اليهم؟! قلت لفراس: لنخرج، وعدت الى الصالة، هنا كانت الكنبات، هنا سهرنا معاً، وشربنا معاً، وقطفنا على عجل زهرة النوم السماوية. كيف أطيل مكوثي، وسط المشهد الجنائزي هذا؟ فجأة رأيت جهاز الهاتف ملقى فوق ظهر المكتبة بلا أسلاك موصولة، لن يرنّ الآن هذا الهاتف، فأكلّمك، كما قبل سنوات. صرت أتنفس بصعوبة، وفكّرت، ربما تتصلين الآن بالبيت في العاصمة، وعدنا، لم يكن صوتك قد وصل، متعب أنا، وحلقي جاف من القهوة المرة، سأشرب بعض الماء، وأحاول النوم الى نهار يكون فيه صوتك.

(جـ)

أمشي وحدي، في شارع لا أعرف له اسماً، أو في أية مدينة هو، حثثتُ الخطى، فإذا بي إلى جانب من أحب في زحام خفيف، إلى جانب صاد، كانت ترتدي ثوب عرس بلون زهري طويل، وتنسدل على وجهها غلالة شفّافة، من لون الثوب، لمحت عبرها عينيها القلقتين تجمّلان وجهها الأسمر المغمور بأسى غامض، تحوّطها طفلتان بثياب هفهافة.

كانت تبدو كأنها في زفاف، هممت بالحديث، وقمت بما يجعلها تلتفت نحوي، فأشارت لي أن أواصل الصمت والمشي. بعد ذلك، لا أعرف أين سرتُ وصرت، لكني بعد قليل وقت، لا أعرف مقداره، لمحتها من مسافة بعيدة بثوبها الزفافيّ، وحيدةً تنتظر في موقف للعربات الكبيرة، وكنت أنا على أسفلت غير ممهد، تطرّزه حفرٌ كثيرة، ووجدتني أندفع نحوها، دون أن أنقل خطواتي. كنت كمن يدفُع بحركة غامضة، أنطلق مثل عربة هادرة بلا عجلات مارّاً على الحفر والحجارة من دون أن أتعثر، أو أرهب مرور العربات، كنت أمشي في الهواء، لا لم أكن أمشي، كانت أقدامي ثابتة، وجسمي كذلك، وكنت أندفع، كانت الحركة في عينيّ ورأسي، حسب، وصلت الى طريق ترابيّ جانبيّ، فرأيت بناءً يقوم، كان بناءً دائرياً أشبه بالقلاع القديمة منه بأي بناء، ثم وجدتني داخل البناء. كان الداخل يمتدّ الى عمق بعيد في الأرض، بمستوى عدد من الطوابق، وكل طابق رفوف خشبية، يستريح عليها عمال تعبون، يدخنون ويشربون الشاي. نظرت الى نفسي: لماذا أنا هنا؟ وتذكرت وقوف من أحب هناك، تذكّرت صاد، خشيت أن تأتي عربة ما قبلي، وتأخذها، فكرت بالخروج السريع من القلعة، لا أعرف كيف دخلت، فكيف أعرف كيف أخرج؟! نظرت فإذا بالحائط الدائري، لا زالت قوالب طوبه خضراء والإسمنت مبتلاً وأخضر، خشيت إن أمسكتُ بطرفه العلوي لأتسلقه، أن ينهار بي، ولمحت لوحاً من الزينكو مسنداً الى جهة الحائط، ذا ثنيات يشبه الدرج، قلت لأحد العمال: هل يُستعمل هذا اللوح كدرج للصعود؟ قال بلى، وصعدت وإذ صرت على الحائط، التفتّ خلفي لأرى حريقاً على أحد الرفوف الخشبية داخل القلعة، وحين هبّ العمال لإطفائه، كان قد شبّ وازداد. اتسعت رقعة النّار، فقفزت عن الحائط، وانتبهت فجأة وأنا أقفز الى أن ارتفاع الحائط عن الأرض عال جداً، لكني كنت قفزت، وأدهشني أني وصلت الأرض واقفاً على قدميّ، ولم أصب بأذى.

كان ناس، وأولاد يمرّون في الجوار، رغبت أن أركض لأرى من أحب، لكني خشيت إن ركضت أن يُظن بي أني مشعل الحريق، مشيت بهدوء، محافظاً على وجهي، خالياً من تعابير الفزع، إلى أن وصلت إلى منحنى، ثم أطلقت ساقي للريح، لم أكن أقصد جهة بعينها، أما عن وقوف من أحب وانتظاره، وقوف صاد أو انتظارها، فلم أعدْ أذكر ن ذلك شيئاً وليس ثمة غير الإعياء، إعياءِ المطارد!.

(د)

كنت أجلس في البيت، هو بيتي، لكنه ليس بيتي في الحياة، بيت مؤثث بجمالية تنمّ عن ذوق فني جميل، بديكورات زاهية، من خشبيّات، وتطريزات، وقطع سجّادية، ومفارش هنا وهناك، أجلس مع أصدقاء، هم شعراء وكتاب من أجيال لاحقة على جيلي، أحبهم، وأحدب عليهم ما استطاع القلب والوقت، وثمة مائدة غير منظورة تُعدّ من شراب وطعام، وفي زاوية بعيدة من القاعة نشغلها كانت أمي تنام، أمي المريضة على ما يبدو.

كان أصحابي يشربون، وكنت أدخل في الحزن وحدي، مشاعر حزينة تتدافع داخلي، وأبتسم

لأصحابي، كان عليَّ أن أغادر البيت إلى مهمة ما، فكّرت لو أني تركت في البيت أصحابي، سيوغلون في الشراب، ويقلقون راحة أمي النائمة، وهي إن صحتْ وأطلّتْ على مشاهد شططهم، سيحزن قلبها عليّ، لا أعرف ما تلا ذلك، غير أني عدت، فوجدتهم قد أتوا على الطعام، وكان لي فيه رغبة، فساءني ذلك، مشيت حيث ترقد أمي، ورحت أسندها بحنو، كما لو كنت أسند طفلة غالية وعليلة؛ ألاحظ أن أمي أطول مما أعرف، وسامقة ببنية رمحيّة، لكأن المرض زاد من نحولها، ولون بشرتها أميل إلى البياض، وهو غير لونها القمحيّ الذي أحب، أمي تتهدلّ بين يديّ وتتكسر، كانت أمي تموت، وتغمض عينيها كغزالة مطعونة، لم أبك يوماً، لم أبك حتى في يوم موتها في الحياة، كما بكيت، وهي بين يديّ تميل عنقاً وجيداً وتنطفئ، بكاءً ما عرفت له شبهاً، كان أصحابي يقفون بالباب، وأنا أنخرط وحيداً في حرقاتي، وفي عجزي عن فعل أيّ شيء يخرجها من عزلة الموت.

في الصباح، وأنا أحتسي القهوة مع صاد رويت رؤياي هذه، فإذا بها تحدّق فيّ محتارة، بينا يداها تقتربان مني، أنا الكثير الكلام عن الموت والزمن. في صباح اليوم التالي، رنّ هاتف الغرفة، رنّ في قلبي فانتفضتُ، وإذ رفعت السماعة، جاء صوتها:

– محمد «لحظة صمت» عبد العزيز مات.

وعلا النشيج، وعذّبني الكلام حتى غاص في الدياجير قلبي.

رأيتني في حيّ جميل، في مدينة لا أعرف، منازل راقية تحوّطها الأشجار، بمداخل من عرائش الياسمين والخضرة اليانعة، لكأني أقيم هنا، الناس في الشوارع، ولعل احتفالاً هناك لا أعرف له سبباً أو مناسبة، ربما كان فرحاً لعائلة، أعرف أن أفراد عائلتي موجودون بين الناس، لكني لا أرى أحداً منهم. ووجدتني مع امرأتي التي تسمى امرأتي، ثمة سلام ما بيننا، وهدوء غنائيّ، يشيع في المكان وفي النفس. أنفلتُ من امرأتي لأجدني داخل عربة زرقاء جديدة، أقودها على طريق اسفلتيّ، غير طريق الحيّ الذي كنت أصف قبل قليل، أقود العربة في غير سرعة، لتواجهني عربة أخرى في ذات الإتجاه الذي أسير، تطلق زامورها لتنبيهي الى خطأي في السير، انحرفت بعربتي إلى الإتجاه الآخر في اللحظة الأخيرة، لأواصل دون أن أعرف غاية لي، دخلت في طريق ترابيّ تأخذ في الصعود التدريجيّ إلى قمة جبل شاهق، ربما أن ما دفعني إلى ذلك هو اكتشافي لوجود عربة خلفي، راحت تطلق زامورها، رغم أنها بعيدة عن العربة التي أقود، لكأنما تتقصّدني وتدفعني عمداً للذهاب في الصعود ولأني لا أعرف أين أذهب بي، رحتُ أضغط على دعّاسة البنزين، وأزيد من سرعتي، وكلما ضغطت أكثر، كنت أندفع إلى الأعلى، وأدرك ما أنا فيه من ورطة، إذ انحصرتْ خياراتي بأن أواصل، حتى شارفت قمة الجبل، ولم يعد من جبل أو شيء، ينبسط أمام الرؤية، غير فضاء أزرق ممدود، ينسرب حتى الأفق، ليس ثمة غير الهاوية إذن. فجأة على خط القمة تماماً، انبثق أمامي جذع شجرة ضخمة، يملأ الطريق، أو يسدّ اتجاهي إلى الهاوية، وقفت العربة دون إرادة مني، قبل ملامسة الجذع بقليل، والعربة التي ورائي، لا تزال تصعد ورائي، واكتشفت أني لا أعرف قيادة العربة الى الخلف، لأعود أدراجي عبر هذا الإنحدار السحيق، أصابني رعب لا يوصف، وأنا أخمّن شكل موتي القادم لا محالة، وأتصوّره، إلا إذا انبثقت من الغيب معجزة ما، وغمر الرعب واليأس روحي، ثم واصلت نومي وكلّي يرتجف.

– ٣ –

(أ)

بعض الكتب تأخذنا منها، وتمنعنا من مواصلة القراءة، ذلك أن بمقدور عبارة ما، فكرة ما، أن تحرك فينا أفضل حياة كاملة طويلة، وتدفعنا لنطلّ على عالم خبيء، طيّ طبقات الذاكرة، أهَلْنا عليه الصمت والكلام، وسلسلناه حتى اشتمله الغياب والنسيان تماماً، معزولاً هناك في جزيرة لا نعرف، ومع الأيام تزداد العين إغماضاً، وننأى نحن.

وإذ نقف على العبارة أو الفكرة، تذهب هذه في حرث داخلنا حراثة عميقة، وفاعلة، لنقف حزينين ومبهورين أمام خزيننا القديم، وأمام المعنى الذي يقول حقيقتنا، دون أن نلمس هذا المعنى إدراكاً وحياة، هكذا نعرفنا من جديد، ونذهب فينا متفكّرين أمام هذا الوخز الوجيع.

ألم يقل « باشلار » (إن قيم الألفة تمتلك جاذبية تجعل القارئ يتوقّف عن قراءة حجرتك، إنه يرى حجرته مرة أخرى، إنه بعيد عنك الآن، يصغي لذكرياته عن أب وجدة، عن أم وخادم، وباختصار عن الإنسان الذي يسيطر على أحب ذكرياته).

يُخيّل لي، أني سأظل نزيل هذا الأوقيانوس الرجراج، أوقيانوس الحزن الملازم لحياتي، أنا المترع بكآبات الجزر القديمة، نزيلها الأبديّ، المتوزعة أيامه بين الرمال والحصى، لائباً وممروراً بها، لكأنها الوشم الباقي، وما أنا سوى ذلك الولد البعيد عن نباته الأخضر، وأضاميم النرجس الجبليّ والتعب، لكأن الانسان يظل أبداً ابن مكوّناته الأولى، وسادن ذلك الزمن النائي، فلماذا تتواصل هذه البنوة فيه عاتية الوخز بتنبيهاتها، وبما تظل ترشحه في الذات من عصارات وتشكيلات، لا يد له فيها ولا قرار!

أكتب الآن كما لو كنت أشكو، أو أقدّم مظلمة ما، أمام قضاة غائبين، أو وهميّين، وليس في بالي هذا الأمر. أكتب فقط، لأني أريد أن أرتاح أساساً من الكتابة، وأن أفضي إليّ دونما رغبات أو هواجس تتآكلني، لأعرف أين صرت، وما الذي يلمّ بي في هذا الإقليم، في هذه المدينة، في الغرفة التي تفيض بالتساؤلات، وغاب عنها الورد، في المقهى الحاشد بالنساء الوحيدات، حيث لا يحضر هاشم إلاّ يوم السبت، أريد أن أراني عارياً، في حقيقتي العارية، وأريد أن أكون وحدي، بلا كتابة، بلا ورق، أو أشواق، وأنبذ هذا الرّف الطويل من الكتب، وأكون لي.

أمس صحوت في نومي، على هذه الرؤيا، رأيتني ممدّداً على ظهري، وإلى جانبي حقيبتي البنية، حاوية أوراقي وسجائري وأقلامي، كنت في وضع غريب لا أعرف له سبباً، لكأني كنت أتخفّى من مطاردين، أو يراد لي هذا المخبأ الذي لا مقدور لعين أو أحد أن يراه، أو يتسمّع أنفاسي فيه، ذلك أني كنت تحت بناية عالية بطوابق عديدة، بناية مهجورة، ما اكتمل بناؤها، كما لو أن مالكها نفدت نقوده، فغادرها البناؤون قبل الشروع في أعمال التشطيبات الأخيرة، فظلّت بلا شبابيك أو أبواب، بناية تكاد تكون مرفوعة في الهواء، ولا تتصل بالأرض باستثناء جزئها الخلفيّ، وهو الضلع الوحيد ذو الأساس، وتقوم عليه البناية، بينما الأضلاع الثلاثة الأخرى ترتفع في الفراغ. انتبهت فجأة إلى غياب الأعمدة، وخلوّ هذه المساحات منها، فكيف تقوم هكذا دونما ساند، ملغية قانون الجاذبية، لعلّي تساءلت ذلك، على أن هذا لم يحرّك

داخلي غرابة ما أو دهشة، لكأني كنت أرى الأمر طبيعياً، بعد قليل فكرت أني لو رغبت الخروج من مخبأي، فعلّي أولاً تحريك جسدي زحفاً باتجاه الضلع الأمامي الأقرب إلى قدمي، وهنا بدأ يدب فيّ خوف ما من أن أعجز في إدارة أعضاء جسدي مثلاً، أو تهبط البناية فجأة، هذه التي بلا أعمدة. ثم انتبهت إلى أمر آخر، وهو أن قاع البناية يكاد يلامسني، وأنا ممدد على ظهري، فمن أين لي حرية الحركة، وهكذا رحت أحرك أطرافي لأعرف مدى الحرية المتاح لي، ملتُ إلى جانبي الأيسر، فعلق كتفي الأيمن بقاع البناية، ووجدتني ممسوكاً بإحكام، وحقيبتي التي إلى جانبي كانت، ويفترض أني ابتعدت عنها باستدارتي، وجدتها لاصقة بي، مثل حجر صغير، يركز ويسند حجراً كبيراً في جدار، ومنعني ذلك من الزحزحة أو العودة الى وضعي السابق. فكّرت بأن ارتفاع البناية عني، لا يتيح لي أن أعود فأنقلب على ظهري فوق الحقيبة، التي عجزتُ عن زحزحتها عن خاصرتي، ومع ذلك رحت أحاول بأناة وحرص مدروس، مشبعاً بالقلق والتحسبات الغامضة، فكان أمر المحاولة صعباً، لكأن كتفي خيطَ بالبناية، وحتى لا أصل سريعاً إلى اليأس، توقفت عن المحاولة، ورغبت أن أفكر قليلاً في حلّ ناجع، لا يزيد إرباكي، وإذ ذاك، أدركت وضعي الحقيقي، الوضع الذي أنا فيه، وضع المصيدة المحكمة عليّ إذ الصراخ لا يجدي، أو طلب النجدة، فالمكان خلاء واسع، بالغ الوحشة والإقصاء حيث لا ناس ولا طير، أو حركة، فما الذي جاء بي هنا، حتى لا يسقط عليّ ضوء، يا الله، هكذا فكّرت وتساءلت، وأيقنت أن ما من أحد سيحرّرني، سوى ن أضمر وأضمر، وأن مع الوقت يهزل حجمي، ويجعلني قادراً على الإنسراب بين التراب والحصى بعيداً عن هذا القاع، ثم راحت عتمة تهبط، ومعها راح رعب في أوصالي يدبّ، ووقعت ثانية في النوم، وغبت عن الوعي.

(ب)

أفقتُ عليّ، نائماً في سرير واسع، على جنبي الأيمن، ولم أكن وحدي، كنتُ أحس أمي نائمة هي الأخرى، على الجانب الآخر منه، فكّرتُ: لمْ أرها منذ زمن، لم أرها قبل النوم، كما لم أرها في النهار! ثمة ضوء شحيح في الغرفة يتسرّب من ضوء الممرّ عبر بابها نصف المشقوق. أتململ وأفتح عينيّ قليلاً، أكاد لا أعرف هذه الغرفة، على أنّ لها شبهاً بغرفتي الراهنة في لندن، التي فيها أعيش، وأقرأ وأكتب، وأطعم نفسي وأُحبّ.

أصحو أكثر وأتفحّص حولي، هو ذا السرير، نفس سريري ، وأنا في غرفتي، هي هي ذاتها، عرفتها أولاً من بابها، لكأني في حلم أشبه بحياتي، أدرك أنّ حواسّي كلّها متيقظة، وأنّ خلف الباب نصف المشقوق تربض أفعى، ويصلني وعيدها، جازمة أنها بعد قليل ستلقي به عليّ، لا أعرف ما هو الشيء الذي تنوي إلقاءه عليّ، كما لم يدهشني أنّ الأفعى تتكلّم مثلي، وأن لغتها عربية فصيحة، وتهدّدني بها، ولا أعرف سبباً لكل هذا، لم تكن لتفزعني بعربيّتها الواضحة والحاسمة، كان يقلقني أكثر، أن تفيق أمي على ما تحدثه من ضجة خلف الباب، في صحن هذا الليل البهيم!

فجأة خامرني خوف ما، غبّ انتباهي

[ألاحظ الآن في حالة الكتابة كتابة هذه الإفاقة، أني ومنذ زمن ليس بالقليل، وفي مثل إفاقاتي هذه، صرت أراني أسير حالات، أكون فيها هدفاً لشراسات عدد من الحيوانات داجنة وغير داجنة، فهي إمّا

تهزل معي، أو تهدّد حياتي بلغة عربية سليمة، لا بالنباح أو الفحيح، أداتها التعبيرية الوحيدة، كما حصل معي قبل أسبوعين مع كلبين غريبين!].

هكذا رحت أصغي الى عربية سليمة، على لسان أفعى الباب المشقوق، وأتحسّب مما تحمله اللحظة التالية، أحسستني كالمربوط العاجز عن تحريك نفسه، لم أستدر الى ناحية أمي، ظللت ساكناً في هيئتي النّائمة المترقبة، الى أن اتسع شقّ الباب، والأفعى دخلت.

انتبهت الى أنها بلا شكلها الطبيعيّ، الأفقيِّ الزاحف على الأرض. أرى قامة منتصبة وتمشي، قامة هلاميّة بلا ملامح. وقفت في مواجهتي، دون أن أملك حراكاً، ظللتُ ممدوداً على السرير، وفي صمت مراسمي، ألقت بالشيء عليّ، وكان ذراع إنسان، ذراعاً حقيقية، كما لو كانت منزوعة للتّو من جسد، من دون أي أثر لدم عليها، وانثنتْ راجعة الى وقفتها المترصّدة خلف الباب الذي ظلّ مشقوقاً.

أصابني كلّه ذلك، بما يشبه الشلل التام، تلاه صمتٌ مرعوب، التفتُّ الى أصابع اليد التي وقعت على جنبي الأيمن في نومتي واستقرَّتْ، كانت أطرافها على مرفقي تماماً، وتأمّلتها: أصابع بيضاء، لا خدوش فيها تميل الى إمتلاء أقرب إلى انتفاخ مرضيّ، حاولت أن أزحيها عني بيسراي التي أنام عليها، حتى لا تراها أمي، إن حدث وأفاقت، فما استطعت، وغشاني رعب غريب. وفي محاولة ربما لتبديد رعبي، رحت أخطب بصوت أشبه بالصراخ، موجّهاً قذائفي اللغوية الى الأفعى الملازمة لبابي المشقوق، مبيّناً أنها ما كانت لتقدر أن تقوم بفعلها هذا في النهار، النهار الحقيقيّ، لو كان ناسي حاضرين وأهلي في الطرقات، أو هذا ما أردته مضموناً لقذائفي، إلا أني انتبهتُ أن كلماتي المشوبة بخوف واضح، لا تخرج من حلقي كاملة الحروف، ولا أكاد ألفظ كلمة واحدة كاملة، وإذْ تأكّد لي ذلك، رأيت رعبي يتضاعف، وآن وقعت عيناي على أصابع اليد التي استحال عليّ اسقاطها عن السرير وعنّي، هويتُ فجأة في الصّراخ.

ثمّ مرّ الليل في المنام، وصار إلى نهار ورأيتني أتجوّل في شوارع لا أعرفها، رأيت أطفالاً وصبية يلعبون، وكنتُ أتلفّت حولي، أبحث عن أحد أعرفه، أحد ما يمرّ صدفة، كنتُ أبحثُ حقاً، عن هذا الغائب، لأروي له ما رأيت، وأعرف أحوالي ومرضي، وأحدّثه عن كائناتي اللغوية الجديدة، في عتمة الإفاقة والنّوم.

رأيت قاصّاً، رعيتُ بداياته الأولى، كان يجلس الى امرأة على أرض معشبة، وكان الأخضر سائداً في المكان، قلت له سأروي لك حكاية، ولم أقلْ حلماً، عاجلني بحزم: في ما بعد، كان مشغولاً بحق، وكانا يحكيان. أضاف: لماذا لا تكتبها لي على ورقة؟ نظرت اليه، نظرت اليهما، ورأيت كم يجدر به أن يخذلني، ويقول ما قال، ليُنحّيني عنه، فالخسارة واضحة، حين تخرج من الحياة الى الحكاية.

مشيت عنهما، لا غاضباً أو محرجاً من كلامه أمام المرأة، مشيت جاهلاً أين أروح للتّخلص من حملي الثقيل، لعلّي ما اهتديتُ، أو ربما أفقتُ بعد ذلك.

(جـ)

كنت أشغل ومنْ أحبُّ حَيزاً غامضاً منزوعاً من المساحة والشكل، لا نعرف إن كان غرفة أو حانة، كما لا نعرف أين يقوم هذا المكان الغريب، نشغله إلفين، يرشحان هوىً، ونحتسي النبيذ، وعلى ما يشبه طاولة خشبية أمامنا، ثمة زجاجات صغيرة تنتصب فارغة، نرشف الشراب مطعّماً بالقبل الخاطفة الرشيقة، وتنخلع الأضلاع لذاذة. كان المحيط عتمة، ولا نرى سوانا، نحن بقعة الضوء الوحيدة، على أن ذلك ما

كان ليثير فينا تساؤلاً ما، أو استغراباً، فما سألتُ مَنْ أحب أين نحن!.

مالت صاد عليّ، بعنقها وصدرها كلّه، وفي ما يشبه النطق، سمعتُ رنين الإغواء، في سؤال: «هل تريد...؟» وإذا كانت تميل، رأيتني ذات اللحظة، أتمدّد على جنبي، ولا أعرف كيف تغيّر وضعي أو متى، لكني أومأت لها بعينيّ أنْ سيكون.

أذكر كانت يدي في الفراغ، بين أعناق الزجاجات الفارغة اليها، دون أن تصل، أو تعود إليّ، حينما انبتر المشهد، ولا أعرف أين صرنا، أو أين صارَ الوقت والنبيذ، والحيّز الكائن في العتمة، وقد شكّل جلستنا النبيذية تلك.

ها نحن في عتمة جديدة، ونمشي، نحدّق في واجهة مكان ما، كأنّه مطعم، ونهمّ بالدخول، والعتمة كاملة في الداخل، أقول لها أدخل أولاً لأرى إن كان المكان مناسباً، دخلت وظلّت بالباب. الممرات معتمة، والعتمة تحتلّ الزوايا، تجاوزت طاولة يجلس إليها رجل وامرأة يحتسيان شراباً ما، ويطعمان نفسيهما، بالكاد رأيت فناء المكان، وثمّنتُ صلاحيّته لمديح العزلة، عدتُ أتحسّس مواقع أقدامي إليها، كنت أشقّ العتمة مهتدياً بضوء خفيّ، وإذ صرت بالباب حيث تنتظرني صاد، كانت العتمة حسب، وما وجدتها، درتُ بعينيّ في الإتجاهات، خطر لي أن أصرخ عالياً باسمها، انتظرتُ قليلاً، ودخلتُ المكان ثانية فلعلّها دخلتْ ورائي، حدّقتُ حتى جفلتُ، ثم زحفتُ في الخوف إلى الخارج، لأجدها واقفة حيث كانت، تتأمّل وتقرأ إعلاناً على حائط غير منظور، كان وقت من الحيرة قد مرّ بطيئاً وثقيلاً في البحث عنها. بدت لي هادئة، كأنّها لم تقترف غياباً ما، وإذا تساءلتُ مستعرضاً قلقي، راحت في خط من الضحك الفارغ، بينما كان داخلي يغلي، وما بين الضحك والغليان، فقدنا مديح العزلة، وانقشعتْ فيّ العتمة.

(د)

وصلت بيتي، كانت غرفة واسعة، تتصل ببلاط الرصيف مباشرة، لا أثاث فيها، ولها ساحة خلفية، تطلُّ على شارع آخذ في الصّعود، مشيتُ قليلاً في ساحته، أتأمّل الفراغ وأسأل نفسي عن السبب الذي جاء بي إلى هنا، ومتّى كان هذا المكان بيتي، وبينا كنت أمسح الأفق بنظرة عشواء، سمعت صوت امرأة خلف سور البيت المجاور، كان وقع خطواتها يرنّ ويعرف من بعد، قلتُ آخذ كرسيّاً وأجلس أمام الغرفة، فأدخّن سيجارة، قد أراها وتراني، يحرّكني فضول ورغبة ما. ولا أعرف وجه المرأة والمكان إذ دفعت بعينيّ تتجسسّان، لمحتها تجلس أمام دارها، وقد سبقتني، أحرجني أن أعود، فأحضر الكرسيّ لأجلس، ذلك أنها رأت أنني رأيتها، خطوتُ إلى الشارع المقابل للساحة الخلفية، ووقفتُ على رأس الطلعة، رأيتُ ما أدهشني حقاً، رأيتُ قطعة أرض مفروزة، كنتُ اشتريتها في إفاقة سابقة، وكانت على طرف ناء من المدينة، في غير هذا المكان، ها أنا أرى ذات القطعة، أراها مسوّرة ومشجّرة على الطرف الجنوبيّ منها يقوم بناء صغير، ربما من غرفتين، أشبه بمنزل حارس، وأرى على يمين البناء، وفي صفٍّ واحد ثلاث شجرات زيتون، وفي الوسط أرى ما يُشكّل هلالاً من جذوع النّخيل العالي زُرِع حديثاً، ولا تزال الرؤوس بلا سعف، وملفوفة بالخيش، بيّنما على يسار المبنى شجر ليس بالكبير، لا أعرف نوعه، ونباتات خضراء، ولاحظت أن الواجهة الأمامية على طولها الواضح ليست مزروعة بأيّ نوع من الأشجار، ورغبتُ لو كنتُ نثرتها

بالبرقوق أو اللوز، لتراها أختي حين تأتي لزيارتنا، أما لماذا أختي فلا أعرف، تعبتُ وأنا أفكر في قطعة الأرض هذه، وفي هذا النخيل أيضاً، وأسأل نفسي: متى شُجّرتْ كل هذه المساحة، ومتى نما الشجر؟ كما رحتُ ألومني على هذا البناء المطرف الأشبه بسكن الناطور منه إلى بيت عائليّ، وانتبهتُ الى سبب وقوفي، وهو انتظار أمي حمدة التي ستأتي بعد قليلٍ، وما أن انتبهت الى ذلك، حتى بزغتْ كوكبة من نساء قادمات من الفراغ أو الغيب، تعرّفت على أمي بينهن، ورحت أتأمل قامتها المنتصبة الطويلة أمامي، وإذ كنت أتملّى قسمات وجهها بين وجوه الكوكبة النسائية، راح وجهها يتشكّل ويستحيل شيئاً فشيئاً الى وجه صاد، المرأة التي أحب، وغادرتُ من أجلها بيتي الأرضيّ، وإذ فركتُ عينيّ، ورحتُ أنظر من جديد، عادت ملامح أمي تتشكّل ثانية على وجه صاد، ظللتُ مبهوراً، وإذ خطوتُ نحو الكوكبة النسائية، راح يختفي كلّ شيء، حتى رؤوس النخيل التي لم أزرع.

محمد القيسي